الجامعة المستنصرية
قسم التاريخ
اسم المادة : تاريخ دولة المماليك في مصر .
اسم تدرسي المادة : أ.د. عفاف عبد الجبار عبد الحميد + أ.د. حسين علي قيس .
المرحلة : الرابعة – الدراسة المسائية
العام الدراسي : 2023 – 2024
المحاضرة رقم (4)

السطان الظاهر بيبرس (658 – 676 هـ / 1260 – 1277 م)

1- كان الأمير بيبرس يأمل أن يجد من قطز حظا من التقدير بعدما ابداه من شجاعة في محاربة التتار

2- طلب من قطز ان يوليه نيابة حلب التي كان السلطان قد وعد فعلا بمنحها ياه،

3- ولكن قطز تمنع وتذكر للجميل فصصم بيبرس على الانتقام من قطز.

4- ودبر مؤامرة مع زملائه من زعماء البحرية لقتل قطز في أول فرصة مناسبة وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة .

5- ذلك انه قد اظهر رغبته بالصيد فلما فرغ من رياضته تقدم منه بيبرس وطلب المرأة من سبي التتار، فاجابه إلى طلبه و انعم اليه بما اراد وقد تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلاطين .

6- وكانت الاشارة بينه وبين شركائه المتامرين .

7- فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة في حين انهال عليه بقية امراء البحرية بسيوفهم ورماحهم والقوه من فرسه حتى اجهزوا عليه .

8- وبمقتل قطز سنة 658 هـ / 1260 م خلا الجو للبحرية و زعيمهم بيبرس وكان من الطبيعي ان تؤول السلطة بعد مقتل قطز الى قاتله ركن الدين بيبرس بوصفه اقوى امراء البحرية من ناحية وصاحب الفكر في قتل طقز فضلا عن مو اقفه المشرفة في في محاربة المغول فاجتمع المماليك واختاروا بيبرس سلطان لهم ولقب بالظاهر .

9- ومن يتامل دولة المماليك في الدور الأول من نشاتها يجد أنه تعاقب على عرشها في السنوات العشرة الأولى من عمرها خمسة سلاطين مما يدل على حالة القلق وعدم الاستقرار، واما بيبرس فكيف انه شغل كرسي السلطنة لمدة سبعة عشر عاما.

10- ولم يلبث السطان الظاهر بيبرس ان يضع لنفسه سياسة واسعة الافق استهدفت في الخارج صد اخطار التتار و الصليبيين عن بلاد الشام ونشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة .

11- وفي الداخل توطيد الامن والقضاء على الثوار و المناوئين وتخفيف الأعباء الملقاة على كاهل الاهالي ثم وضع قواعد النظام الإداري في مصر والشام في العصر المماليكي .

12- القيام بقدر ضخم من الاصلاحات المتنوعة وهكذا قضى السلطان بيبرس حكمه في حركة دائبة بين مصر و الشام يصلح ويجاهد ويثبت اركان دولته وفي سبيل تنفيذ سياسته الواسعة النطاق البعيدة الاهداف .

13- لجأ بيبرس الى عدة اجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته فهو يحالف مغول القفجاق ليتخذ منهم ستار ضد مغول فارس .

14- يحالف الدولة الامبراطورية البزنطينية او امبراطورية الروم ليجعل منها عذا في سياسته ضد الصليبيين في الشام ويحي الخلافة العباسية في مصر لتكون دعامة له ولحكم المماليك في مصر و الشام .

15- والو اقع انه اذا كان التتار قد انسحبوا من الشام عقب عين جالوت فانهم لم ينسوا ابدا تلك الهزيمة الفاضحة التي حلت بهم فظلوا يداومون الاغارة على بلاد الشام بين حين وآخر كلما سنحت لهم فرصة لذلك.

16- كان تتار فارس هم البادئون بالعدوان فاغاروا سنة 664 هـ/ 1265 م على البيرة – وهي قلعة هامة على نهر الفرات وحاصروها بغية الاستيلاء عليها .

17- اظهر بيبرس همة كبيرة لصد ذلك الخطر فارسل الجيوش الى الشام على دفعات، ثم سافر بنفسه على راس الفوج الأخير في نهاية سنة 664 هـ / 1265 م فوصل في العام نفسه غير ان بيبرس لم يصل الى البيرة اذ و افته الاخبار وهو في دمشق بان التتار ولوا مدبرين امام الامدادات التي ارسلها بيبرس إلى البيرة بصحبة الملك المنصور صاحب حماة.

18- لقد ادرك بيبرس ان التتار في فارس يتخذون البيرة مركزا للعبور إلى بلاد الشام امر بتحصينها وتزويدها بالسلاح والمؤن التي تمكنها من تحمل حصار طويل ، هذا الى ان الظاهر بيبرس استخدم شيوخ العرب في العراق ليكونوا عيونا له على التنار ليخبروه بتحركاتهم واحوالهم.

19- ان تؤدي وفاه هولاكو خان التتار في فارس سنة 664 هـ / 1265 م تهدئة الموقف بين التتار وسلطنة المماليك، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحيا نسطوريا، فتزوج ابنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل بالبلوجس .

20- حرص على أن يدعم علاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والعرب للانتقام من المسلمين في بلاد الشام ومصر.

21- ان احوال دولة مغول فارس الداخلية والخارجية عند قيام أبغا في الحكم كانت لا تساعده على الاستمرار في معادة المسلمين في مصر والشام بدليل انه سارع بارسال الرسل سنة 664 هـ / 1265 م الى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح. ولكن بيبرس لم يرتض لنفسه ان يصالح التتار.

22- وهم الذين مزقوا العالم الاسلامي وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا اعداء الاسلام، ولما اهمل بيبرس تلك الدعوة للصلح، عاد أبغا بعد عدة سنوات وارسل سنة 666 هـ ، 1268 م رسولا الى بيبرس يكرر الطلب الى الصلح، كما لجأ الى مزيج من التهديد والترغيب ، ويرفض بيبرس مبدأ الصلح ينس أبغا من مصالحة بيبرس .

23- فلم يبقى أمامه الا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمحالفة الصليبيين وكان الظاهر بيبرس بالاسكندرية سنة 667 هـ / 1269 م عندما بلغه أن التتار اغاروا على (الساجور) قرب حلب وأنهم واعدوا فرنج الساحل اي اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام .

24- وفي الحال ارسل السلطان الامير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجند وأمره ان يقيم في أطراف بلاد الشام على أهبة الاستعداد لصد التتار ولم يكتف بيبرس بذلك و انما خرج بنفسه الى الشام ولكنه لم يكد يصل الى دمشق حتى سمع بانهزام التتار وارتدادهم عن بلاد الشام .

25- ولم يقنع أبغا بذلك الفشل فعاود الهجوم سنة 669 هـ / 1271 م على عين تاب وعمق الحارم ولكن بيبرس خرج على رأس جيشه الى حلب وارسل فرقا من جنده الى اطراف الشام والعراق فحلت الهزيمة بالتتار عند حران وعندئذ تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلفائهم فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزموهم هم الآخرون .

26- ومرة اخرى يلس أبغا من محاربة المماليك، وبخاصة بعد ان تم عقد الصلح بين بيبرس و الصليبيين مما حرم التتار من حليف يعتمدون عليه في مناوءة المسلمين ببلاد الشام فارسل أبغا بعض الرسل الى بيبرس لتحسين العلاقات بين الطرفين و التمهيد لعقد الصلح بين التتار والمماليك. ولكن بيبرس اهمل رسل التتار ولم يهتم لهم.

27- عادت جيوش أبغا الى الاغارة من جديد على البيرة ونصبوا المجانيق لمهاجمتها، و اتخذوا كافة الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول إليها عبر الفرات ، فأسرع بيبرس بتعبئة قو اته لانقاذ البيرة، وعبر بيبرس ورجاله الفرات عوما، وعندئذ فر التتار تاركين خلفهم جميع ما اعدوه من عدد واسلحة.

28- أن سياسة الظاهر بيبرس ازاء تتار فارس لم تقتصر على الدفاع و انما تعدت ذلك الى الهجوم احيانا للانتقام من التتار من ناحية واشعارهم بقوة سلطنة المماليك من ناحية أخرى .

29- قام بيبرس بحملة سنة 675 هـ / 1277 م على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بحماية التتار في فارس واستطاع بيبرس يمزق الجيش التتري في الاناضول عند ابلستين سنة 675 هـ / 1277 م دون ان يستطيع كيخسرو الثالث الذي كان صغيرا اووزيره معين الدين سليمان البرواناه وقف ذلك الخطر .

30- وبعد عودة بيبرس إلى الشام أسرع أبغا الى أبلستين حيث شاهد عسكره صرعى ولم يشاهد احدا من عسكر الروم مقتولا ، فاستشاط غضبه وامر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين ويروي رشيد الدين الهمذاني ان بغا بكى عندما شاهد قتلى التتار مكدسين وحزن على رجاله حزنا شديدا.

الظاهر بيبرس والاستيلاء على انطاكية

1- أن الحقيقة الكبرى التي تواجهنا في نشاط بيبرس الحربي ضد أعداء المسلمين في تلك الحقبة هي صعوبة وضع فاصل بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين فكثيرا ما كان بيبرس يخرج على رأس جيشه من مصر بة احد الخصمين فيحارب الآخر، أو يحارب الاثنين معا.

2- أما الخطر الصليبي فكان من نوع آخر، لأن الصليبيين كانوا عند قيام دولة المماليك منتشرين في بلاد شمالها وجنوبها عن طريق العديد من حصونهم ومعاقلهم التي المسوها داخل البلدة وقرب السماح او طريق المدن الشامية التي ظلوا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها .

3- وهكذا صار الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين بالشام يمكن ان يكون مباشرا ومتصل الحلقات كما كان سلاطين المماليك اكثر احساسا بالخطر الصليبي منه بالخطر التتري الذي لم يحسوا به الا وقت خروج التتار من العراق لمهاجمة اطراف الشام .

4- وقد بدأت هجمات بيبرس على الصليبيين في وقت مبكر، في سنة 660 هـ / 1261 م عندما هاجم بيبرس امارة انطاكية لعقاب اميرها بوهيموند السادس على محالفته التتار.

5- ثم كرر الهجوم عليها في سنة 661 هـ / 1262 م وفي تلك المرة حاصر الجيش المماليكي مدينة انطاكية ذاتها واوشك على الاستيلاء عليها لولا تدخل هيثوم الاول ملك ارمينية الصغرى الذي استنجد بالمغول، مما ادى الى جلاء المماليك عن انطاكية فعادوا ومعهم أكثر من ثلثمائة اسير.

6- على ان بيبرس رأى قبل ان يتوجه الى الفرنج ان يدعم مركزه باتخاذ خطوتين على جانب كبير من الاهمية. الاولى هي احياء الخلافة العباسية في مصر سنة 661هـ/ 1262م ليظهر سلطنة المماليك في صورة القوة الحامية للخلافة المتمتعة ببيعتها مما يدعم دولته الناشئة ويكسبها اهمية في نظر المسلمين كافة والثانية هي محالفة تثار القفجاق - في القوقاز وجنوب روسيا - وهم الذين اعتنقوا الاسلام فاراد بيبرس ان يتخذ منهم عونا على هولاكو و تتار فارس .

7- وقد بدأت الحرب الشاملة التي شنها بيبرس على الصليبيين بعدة محاولات من جانبهم لطلب الصلح وببعض مناوشات من جانب بيبرس لسبر غورهم .

8- حتى اذا ما كانت سنة 663هـ/ 1265م بدأ بيبرس حربه الشاملة ضدهم ففي اوائل تلك السنة خرج السلطان بيبرس على رأس جيش ضخم الى غزة فاستولى على قيسارية ويافا وعثليث وأرسوف التي استسلمت بعد مقاومة شديدة أبدتها حاميتها من الاسبتارية .

9- وبعد استيلاء بيبرس على ارسوف جاء دور عكا ايضا فحضر على رأس جيش قوي من جزيرة قبرص للدفاع عن عكا مما اضطر بيبرس لان ينصرف إلى مصر.

10- ثم عاد بيبرس في العام التالي سنة 664هـ/ 1266 م لاستئناف الحرب ضد الصليبيين فبدأ بمهاجمة عكا ولما وجدها قوية التحصين انصرف الى قلعة القرين فوجدها هي الأخرى صعبة المنال .

11- فقصد صفد واستولى عليها في صيف سنة 664هـ/ 1266م وبعدها استسلمت هونين وتبنين ومدينة الرملة وبعد ذلك استولى بيبرس على بعض المراكز من طرابلس مثل القليعات وحلباء وعرقة .

12- لم ينس بيبرس لا رمينة الصغرى موقفها وموقف ملكها هيثوم الاول في مؤازرة التتار وحثم على غزو الشام في السنوات 658 و 657 / 1259 ، 1260 .

13- لذلك ارسل بيبرس جيشا كبيرا سنة 664 هـ / 1266 م تحت قيادة الامير قلاون والملك المنصور الثاني الايوبي صاحب حماة لمهاجمة ارمينة الصغرى واستطاع المماليك ان ينتزلوا هزيمة كبرى بالارمن وحلفائهم قرب دريساك سنة 664 هـ / 1266 م .

14- وقد قتل في الموقعة احد ابناء اللملك هيثوم واسر ابنه الثاني في حسين كان هيثوم نفسه متغيا عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة التتار .

15- وبعد ان اغار المماليك على مدن ارمينة الرئيسية وهي اذنة والمصيصية و طرطوس اشعلوا النار في عاصمتهم سيس عاودوا ومعم قدر كبير من الغنائم وعدد ضخم من الاسرى والو اقع ان مملكة ارمينا الصغرى .

16- لم تفق مطلقا من تلك الكارثة وصار دورها سلبيا بعد ذلك في الاحداث الجارية على مسرح الشرق الادنى اما الملك هيثوم فان الصدمة جعلته يتنازل عن العرش سنة 667 / 1269 م لابنه ليو الثالث .

17- ويبدو ان السلطان الظاهر بيبرس استغل فرصة الخلافات الداخلية بين الصليبيين بعضم وبعض واغار على منطة طبرية وعكا سنة 665 / 1267 كما استولى على يافا والشقيف ارنون في العام التالي .

18- واخيرا توج بيبرس اعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على انطاكية فوصل اليها سنة 666هـ / 1268 م وهناك قسم جيشه الى ثلاث فرق احدهما اتجهت الى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين انطاكية و البحر و الثانية سدت الممرات بين قلقليلة والشام لمنع وصول ايه مساعدة ال انطاكية من ارمينية الصغرى في اخذت القوة الرئيسية تحت قيادة بيبرس نفسه تهاجم المدينة ولم تلبث ان سقطت انطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة .

19- وفي سنة 667 هـ / 1269 م توج هيو الثالث ملك قبرص ملكا على ممكلة بيت المقدس الصليبية فاخذ على تقوية جبهة الصليبيين بالشام ولكن بيبرس لم يحترم الهدنه التي كان قد عقدها مع الصليبيين بين حيبن واخر.

20- هاجم امارة طرابلس سنة 669 هـ / 1271 واستولى على صافيتا من الداوية وعلى حصن الاكراد وحصن عكار وفي طريق عودة بيبرس من طرابلس استولى على حصن القرين الى الشمال الشرقي من عكا سنة 669 هـ / 1271 وكان من الحصون المنيعة .

21- وفي تلك الاثناء كان السلطان بيبرس ناقما على قبرص لجهود ملكها هير الثالث في توحيد قوي الصليبيين بالشام من ناحية ولاعتداء القبارصة على السفن الاسلامية في شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى لذلك أرسل بيبرس اسطولا سنة 668هـ/ 1270ن لغزو جزيرة قبرص ولكن ريحا عاصفة هبت على سفن ذلك الاسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطي الجزيرة ، مما جعل حملة بيبرس تنتهي بالفشل .

22- وفي سنة 668هـ / 1270 م لغزو جزيرة قبرص ولكن ربنا عاصفة هيت نك الاسطول وحطمت عددا كبيرا منها قرب شاطيء الجزيرة مما جعل حملة بسرس ممهي بالفشل .

23- وفي سنة 668 هـ / 1270 م د وسلت إلى عكا حملة صليبية سغيرة بقيادة الامير الموارد الانكليزي، ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئا مذكورا لمساعدت الصليبيين بالشام مما أدى إلى عقد هدنة لمدة عشر سنوات بين الصليبيين من ناحية والسلطان بيبرس من ناحية أخرى .

24- ولم يستطع بيبرس ان يقلل مساكنا طول مدة تلك الهدنة، وانما قام سنة 673 هـ / 1275 م بغزو مملكة أرمينية الضغرى فالغار على المصيصة وسيس واذنة وطرطوس و أباس ، هذا الى انه اغار على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بحماية التتار .

25- واستطاع ان يمزق الجيش التتري عند ابلستين في ذي القعدة سنة 675 هـ / 1277 م وهكذا قضى السلطان الظاهر بيبرس حكمه الطويل في جهاد الصليبيين من ناحية والآثار من ناحية أخرى، حتى كانت وفاته في محرم سنة 676هـ ١٢٧٧م.

أبناء الظاهر بيبرس (676 – 678 هـ / 1277 – 1279 م)

1- استغل بيبرس فرصة حركة التتار على شمال الشام سنة 662 هـ / 1264 م لتنفيض غرضه ويروي المقريزي أن الأمراء أشاروا على بيبرس عندئذ بسلطنة ولده ليقيم بديار مصر اثناء غيبة ابيه في حرب التتار بالشام .

2- لقد كانت نية بيبرس في تمليك ابنه من بعده ظهرت قبل ذلك بعامين عندما عرض بيبرس عساكر مصر وحلفهم لولي عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بكة خان .

3- ولم يلبث السلطان بيبرس ان احتفل سنة 662 هـ / 1264 م بسلطنة ابنه السعيد احتفالا كبيرا فاركبه بشعار السلطنة وخرج السلطان بنفسه في ركابه ماشيا على قدميه وقد زينت له القاهرة احسن زينة وبعد ثلاث ايام جمع بيبرس الامراء والقضاة والفقهاء وقريء تفويض عهد السلطنة للملك السعيد .

4- توفي السلطان الظاهر بيبرس في دمشق سنة 676 هـ / 1277 م فكتب الامير بدر الدين بينيك الخازندار الملك السعيد في القاهرة يخبره بوفاة ابيه وعندند جدد الاسراء البيعة للملك السعيد كان بايعة سائر العسكر والقضاة والاعيان ودعا له الخطباء في الجوامع .

5- لكن الملك السعيد أتبع سياسة اغضبت الامراء فقرب اليه جماعة من المماليك الاحداث الذين ازداد نفوذهم في شئون الدولة .

6- الامر الذي اغضب كبار الامراء وعلى رأسهم تالي المنطقة الأمير سيف الدين كوندك الساني الساقي وعندما ازداد العداء بين السلطان السعيد وكبار الامراء حول على التخلص منهم .

7- فسجن بعضهم الأمر الذي اثار الخواطر ضده، وتزعم حركة المقاومة مجموعة من كبار الاسراء البحرية مثل الامير سيف الدين قلاون والامير شمس الدين سنقر الاشقر واخيرا اجتمع هؤلاء الاسراء وارسلوا الدارا إلى السلطان السعيد بركة بن بيبرس .

8- حتى انتهى الامر بأن حاصر الامراء القلعة سنة 677 هـ / 1279 م وقطعوا عنه الماء واصروا ان يخلع نفسه من السلطنة.

9- وهكذا استقر رأي الامراء على تعيين بدر الدين سلامش بن بيبرس سلطانا وكان عمره سبع سنوات، فتنقب بالملك العادل واختير الامير قلاون أتابكا له .

10- ولما أدرك الامير قلاون ان الوقت قد حان لتولي السلطنة جمع الأمراء وتحدث معهم في سغر من السلطان العادل وقال لهم قد علمتم أن المملكة لا تقوم الا برجل كامل فاتفقوا على خلعه ونفيه الى الكرك وتولية قلاون سلطانا لمصر.